# العلاقة بين نظام الذاكرة والنظام اللغوي في تسهيل تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها

أ.د. جاندمير دوغان

## ١. مقدمة

يعتبر البحث خطوة مهمة لتطوير تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، والتأكيد على أهمية تطوير أسلوب معالجة المفردات، وفق المزاوجة بين آراء العلماء الأقدمين في فقه اللغة العربية، وبين المدارس الحديثة الغربية وأساليب التفكير الجديدة. ويهدف البحث إلى الربط بين نظام الذاكرة ونظام اللغة العربية، وتقديم نموذج يسهل تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، معتمدا على فهم حديث لأنماط فقه اللغة العربية الأصيلة، من خلال الاستقراء والاستنباط.

يشير البحث إلى نظام عمل الذاكرة وفق خوارزمية الترميز والتخزين والاسترجاع، وقابلية اللغة العربية للتوافق مع هذا النظام، وفق الأنماط المختلفة التي حددها علماء فقه اللغة، أمثال قطرب والخليل وابن جني وابن فارس، الذين صنفوا ورتبوا بناءً على منطق يحاكي الأسلوب العقلي في التعامل مع المفردات. وما بني على ذلك من معالجة للكلمة لتكون قادرة وفق ترميز محدد، لتسهيل تخزينها في خانات العقل، والقدرة على استرجاعها في السياق المطلوب.

ثم بيَّنَ أهمية الترميز اللغوي في تنمية اللغة عند طالب اللغة العربية الناطق بغيرها، معتمدًا على خصائص الذاكرة البشرية، وموافقتها لما بنيت عليه اللغة من ميزات. واستقراء أنماط الترميز التي بنى عليها علماء اللغة كتبهم، لإيصال المفردات لمتعلمها، معتمدين على الترميز الصوتي والترميز الحرفي والترميز المعنوي والترميز التركيبي.

ثم فصَّل البحث في انعكاس أنماط التفكير اللغوي التي حددها علماء اللغة العربية، على آراء الباحثين والدارسين الغربيين في علوم اللسانيات. وآثار ذلك في المدارس الحديثة والفكر الحديث في تعليم مفردات اللغة لغير الناطقين بها.

### ١,١ الإحساس بالمشكلة

يعاني طلاب اللغة العربية الناطقين بغيرها من صعوبة حفظ المفردات، حيث تعتبر اللغة العربية أغنى اللغات بمفرداتها وتعبيراتها، وتختلط على الطلاب تلك المفردات، بسبب ائتلافها أو اختلافها، حتى بات هذا الموضوع في عداد أولويات البحث، إذ لا بد من تنظيم تعليم المفردات بما يتوافق مع نظام العقل الإنساني، وبما يسهل على الطلاب حفظ كلمات اللغة العربية، بأسلوب بسيط واضح.

وليس فقط الصعوبة للناطقين بغير العربية، وإنما يعاني العرب أيضًا من نفس الصعوبة، والدليل اضمحلال اللغة في محادثاتهم اليومية، وكلامهم الدارج على الألسنة في كل السياقات.

### ١,٢ الهدف من البحث

يقوم البحث على دراسة نظام الذاكرة البشرية للوقوف على توافق العقل البشري مع نظام ومنطق اللغة العربية. ولتبسيط حفظ كلمات اللغة العربية للطلاب الناطقين بغيرها، وتنظيم مدخلات الذاكرة البشرية، كما يهدف إلى توصيف التوليف بين النظام العقلي والنظام اللغوي، توصيفًا دقيقًا يوضح نقاط التشابه والاختلاف بينهما.

## ٢. سمات اللغة العربية المنطقية

إن اللغة العربية لغة مدروسة متطورة لا يوجد فيها قواعد مهملة، فنظامها نظام نشط متكامل متوازن متطابق مع العقل، من أدق جزئياته إلى أكبرها، وفيما يلي بعض صفات اللغة العربية المميزة لها:

### ٢,١ حسن النظام ومحاكاة العقل

إن الجغرافية التي ولدت فيها اللغة العربية، هيأت لها جانبًا من الصفاء، بعيدًا عن تعقيد المدنية وزخرفها. يقول

المستشرق أرنست رينان في كتابه تاريخ اللغات السامية: من أغرب المدهشات أن تثبت تلك اللغة القوية، وتصل إلى درجة الكمال عند أمَّة من الرُّحَّل، تلك اللغة التي فاقت أخواتها؛ بكثرة مفرداتها، ودقة معانيها، وحسن نظام مبانيها (الجندي، صفحة ٢٥). فحياة العرب البعيدة عن مظاهر الترف المدني، وجهت أنظارهم إلى العناية بالنواة الأساسية في تواصلهم، دون مشتتات لهذا التواصل من مظاهر فاتنة مما حولهم، فاعتنوا باللغة التي رقّت ونمّقت فيهم ملكة التواصل والتفاهم، وألفت بينهم رابطة تغنيهم عن الرابطة بالبناء الفاخر الباهر، والقصور المشيدة العتيدة، ومثال ذلك اعتناؤهم بالأسواق الأدبية، التي تشبه المهرجانات الكبيرة اللغوية في زماننا الحاضر، وكانوا يتداولون في هذه الأسواق الشعر والنثر والخطابة ويتبارزون بالفصاحة وحسن المنطق والبلاغة وحياكة المجازات البديعة المبهرة، وكان العرب يتناقلون مخرجات هذه الأسواق ويسوقونها على ألسنتهم باديهم وحاضرهم في كل مكان وزمان. كل هذا كان سببًا لنشوء متين وتطور عظيم للغة العربية، وهيأ للغة العربية أن تصل إلى أرفع منطق يمكن للغة أن تصل إليه، ولطالما اقتربت اللغات في أوجها من النظام العقلي أيما اقتراب، هكذا كان حال اللغة العربية في قوتها، إذ صيغت وتقلبت في نظام محكم السبك، يحاكي ويماشي التصور العقلي والمنطق الرياضي الذهني.

### ٢,٢ السعة والمرونة

يقول الإمام الشافعي رحمه الله في أوائل كتابه الرسالة: لسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظًا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي (الشافعي، ١٩٤٠)، ويقرُّ اليوم الكثير من المستشرقين المنصفين من علماء الغرب بأن اللغة العربية تمتاز عن باقي أخواتها من الساميات، وغيرها من ألسنة البشر، بكثرة كلماتها، والاطراد في قياس أبنيتها، وتنوع وتعدد أساليبها، وعذوبة ونقاء منطقها، ووضوح مخارجها، يقول بروكلمان: معجم العربية اللغوي لا يجاريه معجم في ثرائه، إنه نهر (بروكلمان، ١٩٧٧)، وأكد الألماني فريتاغ هذا بقوله: اللغة العربية أغنى لغات العالم، وهذا ما أكده أيضًا الإسباني فيلا سبازا بقوله: اللغة العربية من أغنى لغات العالم، بل هي أرقى من لغات أوروبا؛ لأنها تتضمن كل أدوات التعبير في أصولها. (اللغة العربية، ولسان الحال من علماء الغرب، ٢٠٠٩)

ويوضح فيكتور بيرار صفات اللغة العربية في القرن الرابع الهجري، بأنها أغنى، وأبسط، وأقوى، وأرق، وأمتن، وأكثر اللهجات الإنسانية مرونةً وروعةً، فهي كنز يزخر بالمفاتن، ويفيض بسحر الخيال، وعجيب المجاز، رقيق الحاشية، مهذب الجوانب، رائع التصوير. (العلمي، ٢٠٠٨)

### ٢,٣ الثبات بين الماضي والحاضر

ما هيأ للغة العربية مركزها العظيم بين اللغات هو مرونتها التي لا تنافس ولا تناهز، فالألماني المعاصر - مثلًا - لا يستطيع أن يفهم كلمةً واحدةً من اللهجة التي كان يتحدث بها أجداده منذ ألف سنة، بينما العرب المُحدَثون يستطيعون فهم آداب لغتهم التي كُتبت في الجاهلية قبل الإسلام. (الجندي، صفحة ٣٠١)

فاللغة العربية إذا تتميز بثبات الأصول، ومع هذا الثبات في الموروث العظيم للغة العربية تمتاز اللغة العربية أيضًا بمرونة الفروع، وثبات جذور الألفاظ، ومحافظتها على علاقاتها الاشتقاقية تقابل ديمومة الشخصية العربية خلال الحقب الزمنية المختلفة، فالحفاظ على الموروث الأصيل، واتصال شخصية العربي بنسبه، واستمراره على صفة أجداده، كل تلك الصفات اتصل بها العرب كما اتصلت بها لغتهم، إذ تُمكِّن ظاهرة الاشتقاق في اللغة عند العرب من تمييز الدخيل الغريب من المتصل الأصيل، وبهذه المرونة وهذا الأداء عولجت مسألة المصطلحات، وقد انتبه ألفرد غيوم لهذه المزايا والخصائص العظيمة، فعلق عليها قائلًا: صلح اللسان العربي للتعبير عن العلاقات بإيجاز أكثر من اللغات الآرية؛ لمرونته، وقابليته الاشتقاقية الفائقة في الاسم والفعل (النبهان، ١٩٩٥، صفحة ٥٤) ، فاللغات الأوربية وغير الأوروبية، تتغير معاجمها وقواميسها بين الحين والآخر، ولا يمر قرن من الزمان، إلا ويصيبها تغيير جذري في مفرداتها وقواعدها ومصطلحاتها، بينما حافظت العربية على قدرتها الفائقة العظيمة على استخدام عدة طرائق لتثبيت ألفاظ متولدة جديدة في قاموسها؛ من أمثال القلب المكاني، والتعريب، والنحت، وغيرها.

ومن مرونة اللغة العربية أيضًا: الظواهر الصوتية؛ من إظهار، وإبدال، وإدغام، ورَوْم، وإشمام، وإخفاء، ومن أمثلة المرونة اللغوية العربية: اسم المكان والزمان، والأصوات، والآلة، والسببية، والحرفة، والتفضيل... وغيرها، هذه

المرونة الكبيرة التي هيأت العربية أن ترتقي إلى لغة الحضارة الكبيرة في القرون الوسطى، لذلك تعليمه سهل، التدليل من القرآن الكريم: إنّا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . (٣ الزخرف)

## ٣. اللغة والذاكرة

### ٣,١ تعريف الذاكرة

الذاكرة القدرة على تذكر شيء سبق تعلمه أوسبق اكتساب خبرة فيه. لذلك تعتبر الذاكرة جزءا حيويا فى التعليم . (مؤسسة الموسوعة العربية العالمية، ١٩٩٩)

ويعرّف أندرسون الذاكرة على أنها: دراسة عمليات استقبال المعلومات والاحتفاظ بها واستدعائها عند الحاجة. (Anderson ١٩٩٥)

إذًا الذاكرة هي الحصيلة والخزينة من المعلومات في العقل البشري، ولو أردنا أن تكون هذه العمليات ذات استجابة عالية وكفاءة مرتفعة، لابد أن نقوم بعمليات الترتيب والتنظيم المناسبتين للذاكرة البشرية، وهذه العمليات كما يبين أندرسون هي النظام الذي تعمل عليه الذاكرة، فكلما كانت القدرة على استقبال المعلومات والاحتفاظ بها مضبوطة بأسلوب يحفظها من الضياع ويؤمن سرعتها في الأداء، كانت الذاكرة بأتم حالها، وأقوى صورها.

### ٣,٢ اهتمام العلماء العرب بالذاكرة والحفظ

لقد اهتم العلماء الأقدمون بالحفظ وإيداع العلم في الذاكرة، ومن تمرّسهم في الحفظ وتداول الحفظ بينهم، أصبحت سرعة الحفظ عندهم سجية ومزية، فجاءت الأخبار بكثرة حفظهم، وسرعة إيداعهم العلوم في ذواكرهم. وكانوا يرون أن الكتابة مما ينقص قيمة الإنسان، لعدم ثقته بذاكرته، أما من يودع عقله أمرًا ولا يكتبه على الصحف، فذا صاحب الفضل والعقل الراجح.

ذَكَر صاحب كتاب المنهل الصافي (٢٠٩/١) عن أحمدَ بن إبراهيم القِمني، أنّه كان في الحفظ آيةً، يحفظ السطورَ الكثيرة والأبيات من سماعها مرَّةً واحدة، وكان يقعُد يوم الجمعة تحتَ الخطيب، فيحفظ الخُطبة، إلا أنَّه كان لا يثبُت حفظُه الذي من مرَّة واحدة. ( الأتابكي ، ١٩٨٤)

وقال صاحب سير أعلام النبلاء (٥٣٩/١٥)، وياقوت في معجم الأدباء (١٢٩/١): إنَّ أبا القاسم إبراهيم بن عثمان بن الوزان، وكان يحفَظ كتابَ العين للخليل بن أحمد، وغريب المصنَّف لأبي عُبيد، وإصلاح المنطق لابن السِّكِّيت، وغيرها من كتب اللُّغة، وحَفظ قبلَ ذلك كتاب سيبويه، ثم كُتب الفرَّاء. (الذهبي، ١٩٨٥)

نقل الصفدي في الوافي بالوفيات، قال: قال ياقوت عن بديع الزمان الهمذاني: لم يستقصِ أحدٌ خبرَه أحسن مما اقتصَّه الثعالبيُّ، وكان قد لَقِيَه وكتب عنه قال: بديع الزمان مُعجزةٌ همذان، ونادرة الفلك ولم نرَ نظيرَه في الذكاء وسُرعة الخاطر، وكان صاحبَ عجائب وبدائع، فمنها أنَّه كان يُنشَد الشعر لم يسمعْه قطُّ وهو أكثر من خمسين بيتًا مرَّةً واحدة، فيَحفظها كلَّها ويُؤدِّيها من أوَّلها إلى آخرِها لا يخرم حرفًا، وينظر في الأربعة والخمسة الأوراق من كتاب لم يعرفْه ولا رآه نظرةً واحدةً خفيفة ثم يَهذُّها عن ظهْر قلبه هذًّا، ويُردُّها سردًا، وهذه حاله في الكُتب الواردة وغيرها. اهـ. ( الصفدي، ٢٠٠٠)

وكان العلماء يتنافسون في الحفظ، وكان الحفظ مقياسا ودليلًا على علم الرجل، ومن ذلك قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١١/ ١٨٧).

قال ابنُ أبي حاتم: قال سعيد بن عمرو: يا أبا زُرعة، أأنت أحفظ، أم أحمد بن حنبل؟ قال: بل أحمد.

قلت: كيف علمتَ؟ قال: وجدتُ كتبَه ليس في أوائل الأجزاء أسماء الذين حدَّثوه، فكان يحفَظ كلَّ جزء ممَّن سَمِعَه، وأنا لا أقْدِر على هذا. اهـ. (الذهبي، ١٩٨٥)

وحدَّثنا عبدُالله بن أحمد، قال لي أبي: خُذْ أيَّ كتاب شِئت من كتب وكيع من المصنَّف، فإنْ شئتَ أن تسألني عن الكلام حتى أُخبرَك بالإسناد، وإنْ شئتَ بالإسنادَ حتى أخبرَك أنا بالكلام. اهـ. (الذهبي، ١٩٨٥)

قال الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٤٤/١٨) عن ابن سِيدَه إمام اللُّغة، أبي الحسن، علي بن إسماعيل المرسي، الضرير، صاحب كتاب المُحْكَم والمحيط الأعظم في لسان العرَب، وأحد مَن يُضرَب بذكائه المَثل. (الذهبي، ١٩٨٥)

قال أبو عمر الطَّلَمَنْكي: دخلتُ مرسية، فتشبَّث بي أهلُها ليسمعوا عليَّ غريب المصنَّف، فقلت: انظروا مَن يقرأ لكم، وأُمسِك أنا كتابي، فأتوني بإنسان أعْمَى يُعرَف بابن سيده، فقرأه عليَّ من أوَّله إلى آخره، فتعجبتُ من حفظه.

وكان العلماء في حفظهم يعتمدون على ما صنف وجمع في باب واحد، ليسهل عليهم الحفظ والتخزين في الذاكرة،

وكانوا يعتمدون الترتيب فيما حفظوا، ليكون إدراك المجموع حاضرًا، وهذا الترميز مما يجعل الإنسان متمكنًا من حفظه، ملمًّا بجوانب وأطراف المحفوظ، لا يفلت منه قليل ولا كثير، ومما نقل في هذا، حفظ علي بن عباد، الذي جمع محفوظاته ورتبها على حروف المعجم، لتكون ترميزًا سهلًا لعقله عند الاسترجاع والطلب لما حفظ من عقله.

نقَل الصفديُّ في الوافي بالوفيات: أنَّ عليَّ بن عباد أبا الحسن الأصبهاني، كان أديبًا فاضلاً شاعرًا، قال القاضي يحيى بن القاسم النِّكْريتي: كان يَحْفظ كثيرًا من الأراجيز والأشعار، حكَى لنا أنَّه يحفظ جميعَ أراجيز العجاج وولده رُؤبة، وجميع أراجيز أبي النَّجْم العِجلي، وكنَّا نمتحنه ونطلب منه أن يُنشِدنا أراجيزَ على حروف المعجَم، وكان ينشدنا على أيِّ حرْف طلبْنا منه، وكان يَدخُل على الوزير أبي المظفَّر ابن هُبَيرة فيحترمه ويرفع مجلسَه، ويقول له إذا دخَل: جاء رؤبة والعجاج، وكان يقول: أنا قادرٌ على أن أُصنِّف غريبَ القرآن وأستشهد على كلِّ كلمة فيه من الأراجيز.

لكن حفظهم كانت ترافقه الأداة دائمًا، فكانوا يحافظون على ما حفظوا أيضًا من خلال كتابته على القراطيس، وهذا ديدن العلماء، إذ كانوا يقرنون بين الإيداع في العقول، والإيداع في الأوراق، لزيادة تثبيت المحفوظ. ومن ذلك فعل وكيع بن الجراح الذي كان يحفظ ثم يكتب.

ذَكَر الخطيبُ البغداديُّ في تاريخ بغداد (٤٧٥/١٣) عن يحيى بن مَعين قال: سمعتُ وكيعَ بن الجرَّاح يقول: ما كتبتُ عن سفيانَ الثوريِّ حديثًا قطُّ كنتُ أحفظه، فإذا رجعتُ إلى المنزل كتبتُه. (الخطيب البغدادي، ٢٠٠٢)

وكان العلماء يوصون بالحفظ في الصغر، ويرون أن الحفظ في الصغر أثبت في النفوس، وأقوى في العقول، وأمد في البقاء، ومن ذلكَ الخبرُ معمر في سماعه عن قتادة.

قال الذهبي في "سير أعلام النبلاء" (١٤٤/١٨): عن مَعْمَر بن راشد الإمام الحافظ، شيخ الإسلام.

وقال محمَّد بن كثير، عن معمر، قال: سمعتُ من قتادة وأنا ابنُ أربعَ عشرةَ سَنَة، فما شيء سمعتُ في تلك السنين إلا وكأنَّه مكتوب في صَدْري. (الذهبي، ١٩٨٥)

### ٣,٣ محاولات العلماء الأوائل في رفع سوية الحفظ والاسترجاع من الذاكرة

ولقد اهتم علماء العربية في تنظيم الذاكرة وترتيب الأفكار والبيانات الواردة عليها، وذلك بأساليب ذاكرية، تنمّي الحفظ وترفع من سويته، ذلك أن الحفظ عند علماء العربية أساس لا يمكن الاستغناء عنه، فالشعر والنثر والخطب والأقوال، كل ذلك يحتاج للحفظ والتخزين، والاسترجاع عند الحاجة إليه. فإن كانت الذاكرة مدرّبة ومرتبة على مستوى عالي من الحفظ، تنجز الذاكرة عندها المطلوب في أفضل أداء وأجود حفظ. يعتقد الخبراء أن الأفراد يمكنهم تحسين ورفع مستوى ذاكراتهم بما يكتسبونه من خبرة مع استخدام الأساليب الذاكرية والسجع وغيرها من الأساليب الأخرى. (مؤسسة الموسوعة العربية العالمية، ١٩٩٩، صفحة ٦٢٣)

### ٣,٤ الأساليب الذاكرية

تتعدد الأساليب الذاكرية التي اعتمدها العلماء الأوائل في تجويد الحفظ وتنميته، وكانت كله تصب في تحسين الذاكرة وتقويتها، ومن أبسط الأساليب أن توضع المعلومات في قالب شعري، فكثير من الناس يتذكرون عدد أيام كل شهر بذكر مقطع شعري يبدأ بعبارة: ثلاثون يوما في سبتمبر. كما يمكن أيضا تذكر أسماء الأشخاص بوضع تصور معين لهم، فعندما تقابل شخصا لأول مرة فإنك تستطع أن تلتقط مظهره وشكله العام وتنسبها لاسمه. وعلى سبيل المثال، إذا قابلت شخصا طويل القامة اسمه كوخي فيمكن أن تتصور أن رأسه قد يصطدم بسقف الكوخ إذا ما دخل فيه. وعلى ذلك، فإن هذا التصور يساعدك على تذكر اسمه في المستقبل عندما تراه أو تسمع عنه. ولا شك أن استخدام الأساليب الذاكرية يحتاج إلى تعلمها أو تأليفها حتى يمكن الاستعانة بها في أي وقت. (مؤسسة الموسوعة العربية العالمية، ١٩٩٩)

### ٣,٥ الطرق الأخرى لتحسين الذاكرة

تعتمد الطريقة المثلى لتثبيت المعلومات على قيامك لإعادة تعلمها بعد أن تكون قد أتقنت تعلمها وتسمى هذه الطريقة بأسلوب التعلم المفرط. ذلك لأنك كلما تعلمت شيئا وأفرطت في تعلمه، فإنه يثبت في ذاكرتك تبعًا لذلك. وهناك وسيلة أخرى تعتمد على استعادة تذكر الأشياء، بمقارنتها بما يحيط بك من أشياء أخرى مشابهة لها. وتطبيقا لذلك، نجد أن المدرب الرياضي لكرة القدم مثلا يفرض على اللاعبين

التدريب تحت ظروف مماثلة للمباريات المماثلة للظروف الواقعية. كما أن الطلبة أيضًا يفضلون تلقي العلم في نفس المكان الذي سيتم امتحانهم فيه. وتركز طريقة أخرى على التنظيم. حاول أن تنظم المعلومات عن طريق ربط شيء تريد تذكره بشيء تعرفه مسبقًا، فلو أنك مثلاً أردت تثبيت معلومة عن تاريخ بداية استخدام البنسلين وهو عام ١٩٤١م، فإنه يمكنك تذكره بأنه كان خلال السنة الثانية من الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ -١٩٤٥).

### ٣,٦ المؤثرات على الذاكرة البشرية

والعلماء يدركون القليل عما يحدث في الدماغ عند تخزين الذكريات. إلا أن عملية تخزين الذكريات الجديدة تكون وليدة العصبية ووليدة تغيرات فيزيائية في تركيبها. وقد أوضحت البحوث أن هذه التغيرات يتم حدوثها في جزء دقيق من الدماغ يسمى الحصين وهو جزء صغير من قشرة المخ يقوم بتنظيم معظم الوظائف الرئيسية للدماغ قبل حل المشاكل وتعلم اللغات. وقد وجد العلماء أن الذاكرة يمكن اكتسابها بوساطة سلسلة من الأحداث المترابطة في الدماغ، إلا أن المزيد من الأبحاث ضروري لاكتساب كيفية ترابط الذكريات.

### ٣,٧ جهاز الذاكرة

يقسم علماء النفس جهاز الذاكرة إلى ثلاث مراحل مختلفة طبقا للزمن الذي تستغرقه كل مرحلة. وهذه المراحل هي ذاكرة الإحساس وذاكرة المدى القصير وذاكرة المدى الطويل.

#### ٣,٧,١ ذاكرة الإحساس

ويمكنها أن تستوعب المعلومات ذات اللحظات السريعة. فعند رؤية صورة لجبل مثلا فإن المعلومات الخاصة بالجبل ستمر من خلال عينيك إلى ذاكرة الإحساس التي تستوعب التصور الحقيقي للصورة ولكن هذه الصورة تتلاشى وتختفي في أقل من ثانية. ولكي تبقى هذه المعلومات يجب عليك أن تنقلها سريعًا إلى ذاكرة المدى القصير.

#### ٣,٧,٢ ذاكرة المدى القصير

ويمكنها أن تستوعب الحقيقة ما دمت تفكر فيها. وأنت تستخدم ذاكرة المدى القصير عندما تبحث مثلا عن رقم هاتف، وتظل تردده في نفسك إلى أن تقوم بالاتصال بمن تريد. وإذا لم تقم بترديد المعلومات، فإنها ستختفي من الذاكرة في خلال ٢٠ ثانية. ولكن هناك بعض المعلومات تنتقل من ذاكرة المدى القصير إلى ذاكرة المدى الطويل حيث تبقى هناك طويلا.

#### ٣,٧,٣ ذاكرة المدى الطويل

ويمكنها أن تستوعب كمية هائلة من المعلومات قد يستمر بعضها مدى الحياة. والمعلومات في هذه الحالة تستمر نتيجة لعاملين: ١-التكرار ٢-الانفعال الشديد

إن مقابلة عرضية قصيرة متكررة تظل معلقة في الذاكرة لفترة طويلة كما أن العاطفة القوية المتولدة من أول حب أو اللحظات القصيرة التي تمر في حادثة تصادم سيارة تساعد على إدخال هذه الحالات إلى ذاكرة المدى الطويل. (مؤسسة الموسوعة العربية العالمية، ١٩٩٩، صفحة ٦٣٢)

مما رأينا نستطيع القول، أن سلوك المفردات في العقل ينتقل من ذاكرة الإحساس إلى الذاكرة قصيرة المدى ثم الذاكرة طويلة المد، والانتقال لا بد له من محفز منشط يضبطه بأفضل صورة، وهذا المحفز المنشط هو ربط الكلمات بعنصر ثابت، تعود إليه الكلمات كنقطة مرجعية، فعندما تحفظ العديد من الكلمات التي يجمعها جذر اشتقاقي واحد، تستطيع أن ترتقي بذاكرتك إلى المدى الطويل، وأن تثبت حفظك في العقل دون أي ضعف.

## ٤. مقارنة بين الرؤيتين العربية والغربية للذاكرة البشرية

نَعقِدُ في هذا الباب مقارنة بين الجهود العربية والجهود الغربية، في فهم اللغة والذاكرة البشرية، ولتبسيط الأمر نأخذ من العلماء العرب ابن خلدون، ونشخص رؤيته وفكره، ومن الغرب نعوم تشو مسكي وندرس رؤيته أيضًا.

### ٤,١ اللغة والذاكرة عند ابن خلدون

إن رؤية ابن خلدون للغة رؤية مميزة عن غيره من العلماء، إذ ينظر ابن خلدون للغة نظرة ممزوجة بين علم اللغة وعلم الاجتماع، إذ وجه ابن خلدون الأنظار إلى مقصود اللغة عندما عرف اللغة بقوله: واعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني فلابد أن وهو في كل أمة حسب اصطلاحهم تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان. (ابن خلدون، ١٤٠٦)

فاللغة تسير في طريقها من العثرة إلى الدربة إلى أن تكون ملكة أصيلة، وهذه الملكة تحصل في رأي ابن خلدون بممارسة كلام العرب وتركه على السمع والتفطن لخواص تراكيبه وليست تحصل بمعرفة قوانين العلمية في ذلك. (ابن خلدون، ١٤٠٦، صفحة ٢٦٦)

ولقد استفاض ابن خلدون في تحديد اللغة بكونها ملكة، فأورد في مواضع عديدة من مقدمته توصيف ملكة اللغة، من ذلك قوله في الملكة عمومًا: الملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته وعلى نسبة الأصل تكون الملكة. (ابن خلدون، ١٤٠٦، صفحة ٢٥٨) ثم بين مدخل الملكات إلى عقل الإنسان، فقال: السمع أبو الملكات اللسانية. (ابن خلدون، ١٤٠٦، صفحة ٥٤٦)

ونرى أن ابن خلدون يوجه في أقواله هذه، إلى سلوك اللغة في العقل البشري، حيث يتم الحفظ في الذاكرة البشرية من خلال الترداد والتكرار والمراجعة.

ويؤكد ذلك حنفي بن عيسى بقوله: الملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال؛ لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة تتكرر حالاً، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار، فيكون ملكة أي صفة راسخة (عيسى، ١٩٨٠، صفحة ٢٥٥)

كما ربط ابن خلدون الذاكرة بالبيئة الاجتماعية، وبين أن المحيط اللغوي أساس مهم من حيث كونه مصدر للغة، ويبني على ذلك الحفظ والمران من جديد، إذ يقول في المقدمة: الاكتساب من خلال الترعرع في البيئة وسماع لغتها واكتسابها بواسطة الحفظ والمران. (ابن خلدون، ١٤٠٦، صفحة ٢٣٢)

### ٤,٢ الترميز العقلي وعلاقته بابن خلدون

من مجموع ما ذكر من أقوال لابن خلدون يمكننا القول بأن اللغة عند ابن خلدون تسير إلى الذاكرة في مراحل أربعة، وهي السماع ثم الاختزان ثم الممارسة والتكرار ثم الإنجاز والاسترجاع من الذاكرة في الوقت المطلوب.

#### ٤,٢,١ التكرار في الحفظ وأهميته

يرى ابن خلدون أن التكرار مبدأ مهم في حفظ المفردات، ولا يمكن لطالب العلم أن يصل إلى الملكة الفريدة في اللغة إلا بالتكرار والحفظ، ولقد أفلح ابن خلدون في هذا الرأي، فالتكرار عنصر مهم في انتقال البيانات إلى الذاكرة البشرية الدائمة، وهو داعم لثبوت الحفظ وترسيخه في الدماغ. وركز ابن خلدون في المقدمة على الملكة اللغوية، وهذا لا يختص بدارس العربية الناطق بغيرها فقط، بل العربي أحرى وأولى أن يأخذ بهذه الملكة من غيره، ذاك أن انتشار اللهجات وابتعاد العربي عن سعة مفردات العربية الغنية، أدت إلى اضمحلال في التعبير عن الرؤية والمتطلبات، لأن مخزون العامية من الكلمات أخفض بكثير من مخزون الفصحى، لذا وجب حفظ المفردات واستعمالها لتكون اللغة ملكة وينصرف العقل إلى البناء والإعمار وتكوين الحضارة.

#### ٤,٢,٢ موقف الكلمة الاجتماعي

كما أكد ابن خلدون على العلاقة بين البيئة الاجتماعية واللغة، وعلى أهمية الترعرع في محيط اللغة الهدف، لأن المكان يكسب الناطق باللغة من خصائصه، ويعطيه من صفاته، التي صبغ اللغة بها من قبل ذلك، ويمكن أن ننطلق من هذا الرأي إلى الترميز المكاني، وأن يساعد الطالب عقله على التفكير بالمكان، وأن يربط الكلمات بأمكنة معينة تعلمها فيها أو اكتسب معانيها منها، كما أن المكان التعليمي مهم جدًا بالنسبة لاكتساب المفردات، فيجب أن يؤمن للطالب مكان مناسب من قاعات صفية ونماذج لغوية تحاكي الواقع اللغوي، كما أن الاختلاط بأصحاب اللغة الأصليين أمر مساعد للطالب على اكتساب اللغة بمفرداتها، من حيث النطق السليم والجرس المتين، هذا كله مما يساعد على اكتساب المفردات اكتسابًا قويمًا، بالإضافة إلى رسوخها في الذاكرة الدائمة بناء على الترميز المكاني للعقل الإنساني.

### ٤,٣ تجربة نعوم تشو مسكي في المقاربة بين النظام اللغوي والنظام العقلي

كان لنعوم تشو مسكي جهودًا كبيرة في تقريب المنطق العقلي للمنطق اللغوي، ذلك أنه اعتمد في فكره حول الدراسات اللغوية على مبدأين اثنين، هما:

#### ٤,٣,١ الاكتساب اللغوي

إن خاصية الاكتساب اللغوي عند تشو مسكي، مرتبطة أساسا بالمنهج التوليدي ككل، وهو منهج ذهني يجعل ملكة اللغة قدرة فعالة غريزية وفطرية، وهي قدرة تخص الإنسان وحده (بوقرة، ٢٠٠٤)،

لذلك يرفض تشو مسكي النظرة الآلية إلى اللغة من حيث كونها عادة كلامية قائمة على المثيرات والاستجابات .(الصالح و المنصوري، ٢٠١٣)، وهي النظرة التي سادت فكر السلوكيين، وقادتهم إلى القول بأن اللغة سلوك لغوي يستجيب لمثيرات خارجية، تخضع لسلطة البيئة بالدرجة الأولى، وأتى تشو مسكي بعدهم ليتبنى رأيا مخالفا، يرجح فيه مسألة أن الاكتساب اللغوي يكون عن طريق امتلاك الإنسان لمعارف لغوية تتضمن قواعد كلية. (الصالح و المنصوري، ٢٠١٣)

### ٤,٣,١,١ مبدأ الاكتساب اللغوي

حاول تشو مسكي أن يشرح اللغة ويعلل أسبابها من الداخل وليس من الخارج، ذلك أن الطفل يكون قواعد لغته بصورة خلاقة من خلال ما يسمعه من بيئته. وعليه فإن الطفل يكتسب لغته انطلاقا من الآلية الضمنية التي يمتلكها، والتي تخول له إمكانية التعلم السريع لأي لغة، فالطفل على هذا الأساس، هو الذي يكون مفهوم اللغة ويخلقها شيئا فشيئا، مما يجعله مختلفا عن الحيوان الذي أجريت عليه تجارب عدة، وبينت أنه يفتقد للملكة اللغوية الفطرية التي أودعها الخالق في عباده.

فالقول إذاً، بأن اللغة عبارة عن استجابات لمثيرات خارجية، من الأمور التي يدحضها تشو مسكي، ويرفضها رفضا تاما، ويصر في المقابل على أن بنية التنظيم المعرفي الذي يصل بالطفل إلى اكتساب اللغة، هي بنية معطاة بصورة مسبقة إلى الطفل (بوقرة، ٢٠٠٤) وبهذا يكون الاكتساب اللغوي ناتج عن مقدرة الإنسان الفطرية، هذه المقدرة التي يطلق عليها مصطلح الكفاية اللغوية أو القدرة الإبداعية.

### ٤,٣,٢ الإبداعية اللغوية:

كان للفكر العقلاني -الذي ساد أوروبا في القرن السابع عشر -وقع خاص على نظرية تشو مسكي اللسانية، بل وقد شكل منطلقاً هاماً لتحديد طبيعة اللغة، ولا سيما القواعد الديكارتية التي حددت لنظريته المعالم الكبرى والخطوات الأساسية التي سيبني عليها منهجه التوليدي التحويلي.

وإذا كانت اللغة هي خصيصة إنسانية، تميز البشر عن غيرهم من الكائنات الحية، فإننا نفترض وجود ما يميز هذه اللغة ويصفها. ومن أقوى الصفات التي تكتسيها اللغة هي صفة الإبداعية، ونقصد بها مقدرة الإنسان على إنتاج جمل لا حصر لها دون أن يكون قد سمعها من قبل. (بوقرة، ٢٠٠٤)

### ٤,٣,٢,١ مبدأ الإبداعية اللغوية

نص تشو مسكي على هذه الخاصية التي تعلي من شأن اللغة الإنسانية، وأكد على أهميتها، لأنها تمكن المتكلم من فهم عدد غير متناهٍ من جمل هذه اللغة وصياغته حتى ولو لم يسبق له سماعه من قبل. (زكريا، ١٩٨٦، )

وهذا المبدأ يعزز بشدة اتجاه تشو مسكي إلى دراسة اللغة دراسة داخلية، بعدما لقيت إهمالا وتهميشا من لدن التيارات اللسانية السابقة، كما سارع إلى رد الاعتبار لهذه اللغة، بل وللذات الإنسانية عامة، فبعدما كان الإنسان موصوفا بالتقليد والمحاكاة واجترار ما يسمعه من التراكيب والصيغ اللغوية، أتى تشو مسكي ليبطل هذا الزعم، ويؤكد أن اللغة من أهم الأنشطة التي ينفرد بها الإنسان الذي لا يكتفي بتلفظ الصيغ الكلامية التي التقطها سمعه فحسب، وإنما يستطيع أن يولد قدرا كبيرا من الجمل لم يسمعها قط، ويعبر عنها بصورة غير متناهية من التراكيب.

## ٥. النتائج والاستنتاجات

لا بد من عرض استنتاجي، نقيم فيه ونقوم ما وصلنا إليه بعد العرض والتحليل، وسيكون هذا التحليل للنتائج في الفقرات الأربعة القادمة، وفق التصنيف الذي اعتمدناه.

### ٥,١ السمة التوليدية للغة العربية ودورها في تنمية المفردات

تعني السمة التوليدية أن اللغة تملك عددًا غير محدود من الجمل والصيغ المركبة، وقد رأينا نعوم تشو مسكي يعرض للسمة التوليدية ضمن مبادئه وأفكاره حول اللغات وتعليمها، ونستطيع القول بأن اللغة العربية من أولى اللغات التي يستفاد في تعليمها من السمة التوليدية، إذ هي لغة تعتمد على الاشتقاق والتصريف، وبذلك يمكن للمتعلم إنشاء وتوليف وتوليد العديد من العبارات والجمل، بأقل جهد مبذول، إلا أن هناك نقطة مهمة لا بد من الالتفات إليها عند الحديث على التوليدية في اللغة، وهي العناية بالمفردات والاهتمام بها، إذ لا يمكن تجاهل غنى اللغة العربية بالمفردات وسعة مخزونها، وإلا تكون التوليدية هشة من غير أساس متين، فالطالب عندما يولّد

التعابير والجمل، لابد أن يستند على البنية الأساسية في تلك الجمل وهي المفردات، وهنا يأتي دور التكامل بين الاهتمام بالمفردة وبين توليد الجمل منها، فعندما يطلب من الطالب حفظ المفردات مجردة من التوليد، لا تصل مفرداته إلى الذاكرة الدائمة لفقرها من التكرار، وعندما يطلب منه التوليد دون التركيز على اتقان المفردة، يكون عاجزًا عن تركيب ما لا يملك أجزاءه، فالتكامل واضح بيّن بين التوليدية وبناء المفردات في الذاكرة البشرية.

### ٥,٢ السمة التوليفية بين اللغة الأم واللغة الهدف ودورها في تنمية المفردات

إن بين أي لغة هدف يسعى الطالب إليها وبين لغته الأم رابط ما، ومن خلال عملية التعليم لابد من الالتفات إلى هذا الرابط، سواء كان الرابط سلبًا أو إيجابًا، فالعقل البشري يسعى إلى الجديد من البيانات الواردة إليه بالربط والمقارنة والمقايسة، ثم تكون نتيجة التحليل قيمًا جديدة مولَّفة عن هذا الربط، وإلا تبقى البيانات تائهة مشتتة، تخزن لوقت قصير في الذاكرة ثم تتحلل وتذهب، وبناءً عليه لابد للمعلِّم في العملية التعليمية، أن يوجه الطلاب إلى تلقي الجديد من الكلمات من اللغة الهدف، ومقارنتها مع الكلمات في لغته الأم، من ناحية الصوت أو المعنى، فإن تآلفت الكلمتان ضمَّ المعنيين إلى بعضهما، وإن اختلفا بدأ بإنشاء وحدة لغوية جديدة في ذاكرته، وبتعامله مع جميع المفردات على هذا الأساس، ينمي الطالب المعالجة العقلية، ويسعى بالمفردات إلى الذاكرة طويلة الأمد، فتثبت البيانات اللغوية في العقل، وتزيد الحصيلة اللغوية عند الطالب.

### ٥,٣ الاكتساب اللغوي ودوره في تعليم المفردات

تبين لنا من مبدأ تشو مسكي في الاكتساب اللغوي، أن المتعلم ينشأ لغته من الداخل، ولا يأتي تعلّم اللغة بحسب مبدأ نعوم تشو مسكي من مؤثر خارجي، فالعامل الرئيس في اللغة هو الطالب نفسه، وليتم الاكتساب اللغوي للطالب لابد له من أساس معرفي، يتعرّف من خلاله على نظام اللغة الهدف ومحاورها الأساسية، ولو أردنا الاستفادة من مبدأ الاكتساب اللغوي في تعليم المفردات، يمكننا القول بأن تعريف الطالب على المبادئ المهمة والأنظمة اللغوية الأساسية، أمر مساعد على بناء الحصيلة اللغوية عند الطالب من مفردات اللغة، فتعريف الطالب مثلًا على نظام الاشتقاق، وتمليكه القدرة على اشتقاق كلمة من كلمة، وتعليمه مبدأ التشجير اللغوي، هو أمر يزيد من أداء الطالب، ويرفع من ملكاته اللغوية، ويجعل من حفظ الكلمات أمرًا يسيرًا، ويؤهل الطالب إلى النضوج اللغوي، والسرعة في الانتقال إلى المستويات الأعلى.

### ٥,٤ موقف الكلمة الاجتماعي ودوره في تعليم المفردات

لا يمكن فصل اللغة عن البيئة التي ولدت فيها، لأن أثر المكان على اللغة واضح في كل لغات العالم، والألسنة الناطقة باللغة تتأثر وتستمد من الظروف المحيطة جرس ونغم حروفها، ويتولد النبر والتنغيم منسجمًا مع أصوات الطبيعة، والرنَّات الحاصلة في المكان، واللغة العربية لا تخرج عن هذا الوصف، فمعظم كلماتها وحروفها، جاءت ملائمة لطبيعة العربي، بإبائه وصلابته ومتانته، وتغذت من المكان الذي ارتاده العرب في كل أطوار حياة اللغة، ولو أردنا تعليم اللغة العربية لغير العربي، لابد أن نهتم بموقف الكلمة الاجتماعي، وذلك بناءً على رأي ابن خلدون الذي سبق في البحث، بأن اللغة لا يمكن أن تنهل إلا من بيئتها، ولا تحصل الملكة اللغوية إلا أن ينشأ المتكلم في بيئة اللغة، من هنا يمكن القول إن تعليم مفردات اللغة لابد أن ينسجم مع المنطق العربي الناطق لها، ونقل الطالب باللفظ الصحيح والنطق السليم إلى المعنى الذي أريد من اللفظة حين وضعت، وهذا أمر في غاية الأهمية في تعليم المفردات، وعمليًا يمكن أن تكرر المفردات أمام الطلاب بلسان عربي ولفظ صحيح، وإعطاء النبر والتنغيم الحق التام عند اللفظ، لينسجم العقل وتحفظ الذاكرة المفردة، ناضجة واضحة لا لبس فيها.

# المصادر والمراجع


يوسف بن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن الأتابكي . (١٩٨٤). المنهل الصافي. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

إبراهيم محمد إبراهيم محمد عثمان. (بلا تاريخ). من المدارس الألسنية: المدرسة التوليدية التحويلية.

أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي. (٢٠٠٢). تاريخ بغداد. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

إدريس بن الحسن العلمي. (٦ ٢٣، ٢٠٠٨). اللغة العربية وآراء المفكرين الغربيين. تم الاسترداد من شبكة صوت العربية:

https://www.voiceofarabic.net/ar/node/١٧٤٨

أسمهان الصالح، و أحمد المهدي المنصوري. (شباط، ٢٠١٣). النظرية التوليدية التحويلية وتطبيقاتها على النحو،، م. س، ص:٣٢٦. مجلة القدس المفتوحة.

الشافعي. (١٩٤٠). الرسالة. مصر: مكتبه الحلبي.

اللغة العربية، ولسان الحال من علماء الغرب. (١ شباط، ٢٠٠٩). تم الاسترداد من موقع جمعية الترجمة العربية وحوار الثقافات.

أنور الجندي. (بلا تاريخ). اللغة العربية بين حماتها وخصومها. مكتبة المعارف.

حنفي بن عيسى. (١٩٨٠). محاضرات في علم النفس اللغوي. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايماز الذهبي. (١٩٨٥). سير أعلام النبلاء. لبنان: مؤسسة الرسالة.

صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي. (٢٠٠٠). الوافي بالوفيات. بيروت: دار إحياء التراث.

عبد الإله أحمد النبهان. (١٩٩٥). بحوث في اللغة والنحو والبلاغة. سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع.

عبد الرحمن بن محمد بن محمد أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي ابن خلدون. (١٤٠٦). ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (المجلدات الثانية – ١٩٨٨ م). (تحقيق خليل شحادة، المحرر) لبنان، بيروت: دار الفكر.

كارول بروكلمان. (١٩٧٧). فقه اللغات السامية. (رمضان عبد التواب، المترجمون) السعودية: جامعة الرياض.

مؤسسة الموسوعة العربية العالمية. (١٩٩٩). الموسوعة العربية العالمية. الرياض: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع.

ميشال زكريا. ( ١٩٨٦، ). الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

نعمان بوقرة. (٢٠٠٤). المدارس اللسانية المعاصرة. القاهرة: مكتبة الآداب.